

الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي

بل لو ظهر مع هذه القرائن شكاً لعد أحمق ورشقته سهام الملام وكذلك إذا وجدنا رجلاً مرموقاً عظيم الشأن معروفاً بالمحافظة على رعاية المروءات خاسراً رأسه شاقاً جيبه حافياً وهو يصيح بالويل والثبور ويذكر أنه أصيب بولد أو والده وشهدت الجنازة ورؤى الغسال مشمراً يدخل ويخرج فهذه القرائن وأمثالها تفيد العلم بصدق المخبر وإن كان واحداً .
واعلم إن هذه العلوم الحاصلة على حكم العادات وجدناها مترتبة على قرائن الأحوال وهي لا تنضبط انضباط المحدودات بحدودها .

وقد قلنا إنه لا سبيل إلى جدها إذا وقعت وهذا كالعلم يخجل الخجل ووجل الوجل وبسط الثمل وغضب الغضبان ونحوها مما لا يعد ولا يحصى .
وإذا ثبتت هذه القرائن ترتبت عليها بديهية لا يأبأها لا جاحد ولو رام أمرؤ العلم بضبط القرائن ووضعها بما يميزها عن غيرها لم يجد إلى ذلك سبيلاً وكأنها تدق عن العبارات وتأبى عن من يحاول ضبطها بها .

وقد قال الشافعي Bه من شاهد رضيعاً قد ألقم ثدياً من موضع ورأى فيه آثار الامتصاص وحركات الغلصمة وجرجرة المتجرع لم يسترب في وصول اللبن إلى جوف الصبي وحل له إن يشهد له شهادة بأنه بالرضاع ولو أنه لم يثبت شهادته في بيان الرضاع ولكنه شهد على ما رأى من القرائن في وصفها واستعان بالواصفين معرفين فبلغ ذكر القرائن مجلس القضاء لم يثبت الرضاع بذلك .

وذلك إن ما سمعه القاضي وصفاً لا يبلغ مبلغ العيان والذي يقضي بالمعائن إلى درك اليقين يدق مدركه عن عبارة الواصفين .

قال إمام الحرمين ولو قيل لا زكى خلقاً قريحة وأحدهم ذهنًا أفضل بين حمرة وجه الغضبان وبين حمرة المرعوب لم تساعده عبارة في محاولة الفصل فإن القرائن لا تبلغها غايات العبارات .

وبهذا يتمهد ما قلناه من أن حصول العلم بصدق المخبر لن يتوقف على حد محدود ولا عدد معدود وإنما اعلم